# تصديــر

***

## حوار الحضارات أم أزيز الطائرات !؟

## أو

## فاكس من قرطبة إلى نيويورك

طفــت علــى السّاحة الفكريّة بعد الحرب العالميّة الثانيّة، في نـهاية النصّف الأوّل مــن القرن العشرين، وبعد انحلال المعسكر الشّيوعي في النّصف الثاني مــنه مواضـــيعُ خطيرة تتعلّق بمصير البشريّة، كموضوع حوار الحضارات و تصـــادمها، وحـــوار الـــثّقافات وتباينها، وحوار الأديان وتسامحها. وهي لئن اختـــلفت فـــي التّســـمية، فإنّ هدفها نبيل واحد هو إيجاد ضرب من التّعايش السّـــلمي بيـــن الشـــعوب والتّســـامح بين الأجناس يبعد شبح التعصّب المقيت والصّراع البغيض.

وفعـــلا إنّ أحوج ما تحتاج إليه الأمم والشّعوب اليوم في بداية هذه الألفيّة الثالـــثة، وبعـــد أن عاش العالم من أحداث في سبتمبر الماضي ما هزّ أعماق الضّـــمير الإنســـاني، هـــو أن تقترب النفوس (لا الأجسام) بعضها من بعض وتتعارف وتتفاهم. ذلك أنّ عدم الاقتراب يؤدي إلى ابتعاد، فينشأ فراغ –حسب قوانيـــن الطبيعة– يُمْلأ بالتّضليل و التّحريف والتّزييف سواء عن جهل أو عن ســـوء نيّـــة. وهكذا تُسْتَنْقَص حضارات وتُهمَّش ثقافات وتُدان أديان، فتمتلئ الـــنّفوس كرها والقلوب حقدا، فيكون ما كان دون كابح من عقل، أو وازع من ضمير، أو رادع من قانون.

وقد تلقت الأندلس منذ فتحها ثقافة المشرق تباعا بمختلف روافدها، وتمثّلتها صلة انتماء حضاري روحية تربطها بأرض الشعر والوحي والعلم.

لكن الأندلس قبل الفتح الإسلامي أرض جديدة مغايرة للمشرق العربي طبيعة وثــقافة وحضارة.

والطبيعة هنا خصوبة ولا جفاف . ولئن وجد فيها الفاتحون أشباها ونظائر مع بعض بلاد المشرق فوسموها بأسمائها لقد كان ذلك حنينا، لغة لا يطابق فيها الدّال مدلوله إلاّ قليلا .

والثقافة هنا تنتمي إلى الحقل الرّوماني اللاتيني . فهي ما ترسب من عناصر الزمن الأروبي الغابر وحملته لغة الأمومة (الرومنثية) مشافهة لا كتابة، ثم ما طفا على السّطح من الديانة المسيحية أو اليهودية. وقد بقي شتات هذه الثقافة المحلية بعد الفتح الإسلامي حاضرا حضور كمون على هامش ثقافة المشرق الغازية وقد تلقتها الأندلس بإعجاب . ولكن هذه الثقافة الغالبة لم تكن تلقى بالأندلس التربة التي أنشأتها بالمشرق . فما يكون منها بالأندلس تمثّلا أو إبداعا لا يمكن أن يكون – نظريا على الأقل – دون أن يسري فيه نسغ من هذه الأرض الجديدة يسمه فرعا من أصل فيه ما في الأصل ما يحقق الانتماء الحضاري المنشود وفيه من رواسب هذه الأرض ما ينضاف إلى هذا الأصل فيثريه.

في هذه الرؤية يتنزل موضوع بحثنا مقتصرا على الأدب متمثلا في العنوان التالي:

**«ظاهرة التماثل والتميّز في الأدب الأندلسي من القرن الرابع إلى السّادس هجريا».**

وقد ذكرت في مقدمة عملي ما يبرّر اختياري بداية الفترة ونهايتها. وألاحظ أن تحديد البداية لا يعني أن الظاهرة كانت معدومة قبل القرن الرابع ولكنها اتخذت معه طابعا شموليا، علامة وعي الشخصية الأندلسية بذاتها وبانتمائها العربي الإسلامي انتماء متميزا. وهذا الوعي قد استكمل عناصر نموه وتطوّره على امتداد هذه الفترة تطعّمه تجربة حضارية أندلسية .

واستبد بها هذا الوعي مع نهاية الفترة لأسباب موضوعية تاريخية وخاصة منذ تفاقم الخطر النصراني وسقوط ملوك الطوائف وقيام السلطة المرابطية فالموّحدية بالأندلس.

نواة هذا العنوان الثنائي " التماثل والتميز " في علاقة تكامل وتفاعل تؤلف بين شتات ما يستقطبانه من مكونات النّص الأدبي.

وتبين لي من مطالعاتي أن هذه الظّاهرة ليست مقصورة على الأدب الأندلسي ولا على الأدب العربي القديم . فكل أدب هو بين التماثل والتميز. ولكن تتفاوت الآداب في حظّها من هذا وذاك وتختلف وظيفة عناصر التماثل من الأدب العربي إلى سواه من الآداب العالمية .

وقد أكدت نظرية التداخل النّصي حقيـــــقة هذه الظاهرة فهي من المسلّمات، وإذن ففيم البحث في هذا الموضوع بالنسبة إلى الأدب الأندلسي ؟

لقد شغلني به أمران :

**أولهما** : ما اطّرد أو كاد في معظم البحوث المتعلقة بالأدب الأندلسي من أنه باستثناء الموشحات قد هيمن عليه التماثل في معنى التقليد، وحظ التميز فيه قليل، ووجه التماثل كان محل إجماع الباحثين وجانب التميز لم يبد من خلال هذه البحوث – إن هي سلّمت به– إلاّ عرضيا طارئا.

وبعض البحوث الجدية من نوع بحوث فقيد الاستشراق الإسباني غرسية غومس (G.Gomez) أو بحث المستشرق الفرنسي هـ. بيراس أو بحث حمدان حجاجي في شعر ابن خفاجة أو دراسات إحسان عباس، كلها تبدو قلقة إزاء عنصر التميز في هذا الأدب.

فهي بحكم تمرّس أصحابها بهذا الأدب تتحسّس فيه روح التميز والطرافة وتقف على بعضها أحيانا. ولكنها ما أن تحاول تشخيصها حتى تتراجع وترتد إلى بعض

التناقض أحيانا . وقد ذكرت أمثلة من ذلك في غضون البحث، ولا داعي لتكرارها الآن .

فبدا الأدب الأندلسي من خلال هذه البحوث كأنّما هو مجرّد توسع في الأدب المشرقي يوفر منه نسخا مطابقة للأصل. ولم تستطع هذه البحوث أن تتبين فيه وجه تميّزه في رؤية شاملة تجمع شتات ما ينكشف لها منه عرضيا.

هذا هو الداعي الأول لاشتغالي بالموضوع. لكن القضية تتجاوز الأدب الأندلسي إلى الأدب العربي القديم والشعر منه خاصّة . إذ التماثل ظاهرة تهيمن عليه . لكن النصوص رغم ذلك تختلف عن بعضها لتؤلف ما يسمّى بالتجربة الشعرية من شاعر إلى آخر ومن مركز ثقافي إلى آخر . فكيف يتميز النص الأدبي عند العرب – وخاصة منه الشعر – في تماثله ؟

**ثانيهما** : هذا هو الداعي الثاني لاشتغالي بالموضوع. ويأخذ الأدب الأندلسي في بحثي وظيفة النموذج حينئذ، وتتسع آفاق البحث إذ ذاك . هذه الغاية فماهي الوسيلة ؟

إنّ مفهومي التماثل والتميز يقتضيان توخّي منهج المقارنة بين النصوص. ولا تكاد تخلو البحوث في الأدب الأندلسي من فكرة المقارنة. إلا أنّها غالبا ما تقتصر على النّص الأندلسي تفرز منه بعض وجوه التماثل البارزة ترجعها إلى أصولها المشرقية، وقد تتبين بعض وجوه التميز، مما لا تجد له مرجعا مشرقيا. وهو ما لايحصل لها إلاّ نادرا وتبقى المقارنة عرضية ضمنية .

ونادرة هي البحوث التي اعتمدت المقابلة بين النص الأندلسي والنّص المشرقي. وبعضها قد اعتمد في الشعر المقارنة بين البيت والبيت معزولا عن سياق القصيدة. وهو ما يسقط بعض دلالاته ويحد من قيمة الاستنتاجات مهما كان نوعها .

ومن منطلقات هذه المقارنات اعتمادها أحكام النقاد الأندلسيين أنفسهم على أنّها شهادة شاهد من أهلها . وقد بيّنّا في هذا البحث أنّ الناقد الأندلسي كثيرا ما تحركه نزعة الانتماء الحضاري فتشده في النص مظاهر التماثل أكثر مما تشده مظاهر

التميّز. بل إن من التميز ما يعرض عنه هذا الناقد إذا كان خروجا عن السنّة الثقافية. وهذا شأنهم مع الموشّح.

ومن منطلقاتهم الاتجاه إلى البحث عما يسمّى بـ" اللّون المحلّي " في صورة ظاهرة مكشوفة مثل استعمال أسماء الأماكن أو الأعلام أو اللّغة المحلية، واستلهامها إيحائيا ولكن الأدب الذي اتخذ من لغة القرآن والشعر الجاهلي أداته لا يقبل أن تتسرب إليه عناصر محلية أو من جاهلية غير العرب.

هذه بعض الوجوه من المقارنات وبعض المنطلقات التي صدرت عنها. وهي لا تؤلف منهجا متكاملا يضمن وجاهة النتائج التي يفضي إليها، فكانت أولى الصّعوبات التي واجهتها. وهي تحديد منهج موحّد يمكن أن يطبّق على كل النّصوص. ولم يستقم لي ذلك كليا حتى انتهيت من معالجة كل المدوّنة التي اعتمدتها. فكل نص كان يقتضي تعاملا خاصا به. لكنني كنت كلما انتهيت من معالجة نصّ تبينت بعض الثوابت كانت تيسّر عليّ الأمر بالنسبة إلى النص الموالي. ويمكن أن أعتبر الآن هذه الثوابت منطلقات المقارنة في هذا البحث وأهمها :

1- إنّ التماثل في الأدب الأندلسي أمر حتمي. وغاية المقارنة لا أن تثبت وجوده وإنّما أن تبين كيفيته ودلالاته، فربّما كانت هذه وجها من التميّز. لأنّ التماثل ليس المطابقة. وهو لا يخلو من اختيار منوط بعوامل عدة تحددها تجربة الأديب مع محيطه.

2- إنّ تجربة الأديب في تميزها وتفردها لا يمكن أن تبدو في بعض وحدات النّص دون بعض. فالمقارنة ينبغي أن تكون بين نصوص كاملة في معنى واسع لكلمة نصّ يشمل القصيدة والرسالة والمقامة والديوان ومجموع المقامات أو الرسائل حيث تبدو تجربة الأديب الفنية مكتملة.

3- ولكي تصحّ المقارنة ينبغي أن يشترك النصّان في الموضوع على الأقل فضلا عن إمكانية اشتراكهما في الشكل، وإن كان ابن الأثير لا يستبعد إمكانية المقارنة بين نصوص مختلفة المواضيع . ويقرّ بصعوبة ذلك .

4- النّص الأدبي الأندلسي – شأنه شأن كل نص أدبي – فريد من نوعه ويكمن تفرّده في مجموعة من الاختيارات يقوم عليها تأليف النّص بالمقابلة مع النّص المشرقي منها:

- ما اختاره المبدع من عناصر التماثل مع النّص المشرقي .
- وما غيّر فيه لفظا أو معنى وتصرّف فيه .
- وما أضافه من الرصيد المشترك وكان غائبا في النّص المشرقي .
- ما أهمله من النّص المشرقي وسكت عنه.
- ماتسرّب إلى النّص الأندلسي من عناصر محيطه الطبيعي والحضاري.
- ثم توزيع كل هذه العناصر في النص الأندلسي بالمقارنة مع النّص المشرقي.

كل هذه الاختيارات لا يمكن أن تبدو من المقارنة الجزئية. وهي لا تخلو من دلالة على تميّز تجربة الأديب الفنية في علاقتها بتجربته الحضارية، فهي علامات تشير مجتمعة إلى ما ينفرد به كل نص لا في مستوى ماهو مصرّح به، وإنما في مستوى ما يوحي به إيحاء ويتردد في مختلف وحداته وعبر مختلف أساليبه ومضامينه وبناه الظاهرة . ويجتمع فيما يسمى بالبنية العميقة للنص، وهو ما لا أدّعى أني قد أدركته فيما عالجت من نصوص ولكنّي حاولت مقاربته قدر الجهد .

وهذه الاختيارات لا تكاد تظهر عندما نتعامل مع النّص الأندلسي منفردا . فهو كثيرا ما يبدو لنا مجموعة من العناصر المشرقية الأصل لا تشي بأي تميّز .

هذه بعض الثوابت التي وجهتْ تعاملي مع النّصوص. وكانت وليدة هذا التعامل في علاقته بمطالعات عامّة تتصل بالنظرية الأدبية عند العرب أو سواهم، وبمناهج ممارسة النّص الأدبي في تعـــــددها على وجه الخصوص. والتحم في ألياف هذا التعامل النظر بالتطبيق .

وقد اقتضت منّي طبيعة الموضوع أن أختار مدوّنة تستجيب للمقارنة. فكانت مزدوجة في كل ما له أصل مشرقي وشملت أهم أشكال الأدب الأندلسي : الشعر والموشح و الرسالة و المقامة .

واقتصرت في الشعر على المعارضات وديوان ابن خفاجة وبعض القصائد من ديواني الصنوبري و ابن الرّومي ورائية امرئ القيس الشّهيرة .

أمّا الموشح فقد اعتمدت كل ما وصلنا منه مطبوعا . ويبلغ 663 موشحا. ولم أتوخّ فيه المقارنة بين النصوص لانعدام المقابل المشرقي و إنما عمدت إلى مناظرة الموشح بما يسمّى بصناعة الشعر( la poétique) أو بالنظرية الشعرية. وأمّا الرسالة فاقتصرت على نماذج منها :

1- معارضة أبي المغيرة بن حزم لإحدى رسائل الهمذاني.

2- رسائل المفاضلة بالأندلس. ولم أقابلها بنظائر مشرقية لتميزها بموضوعها .

3- طوق الحمامة لابن حزم ويتقابل مع ثلاث مؤلفات :

- كتاب الجاحظ في النساء.
- كتاب الزهرة لابن داود .(الجزء الأوّل).
- كتاب المصون في سرّ الهوى المكنون لإبراهيم الحصري.

4 – رسالة حيّ بن يقظان لابن طفيل بالمقارنة مع نظيرتها لابن سينا.

وأمّا المقامة فقد اعتمدت فيها ثلاث مجموعات : مقامات السرقسطي والهمذاني والحريري .

هذه المدونة تتألف من نصوص إبداعية تمثل عيون الأدب الأندلسي ممّا له أصل مشرقي أو ممّا تفرّدت به الأندلس . وهي مدوّنة غزيرة المادة ضخمة الحجم رغم

خضوعها للاختيار، ولكنها تبقى مفتوحة لنصوص أخرى متى توفرت فيها الاستجابة لطبيعة هذا البحث منهجا وموضوعا [2] .

وهذا شأن التخطيط الذي توخيته في هذا البحث أيضا . فهو تخطيط ثلاثي يقوم على ثلاثة أبواب :

* الظاهرة في الشعر.

** الظاهرة في النثر.

*** الظاهرة في المشاغل الثقافية والأدبية وعواملها.

فالبابان الأولان تستقطبهما النصوص في مختلف أشكالها . وقد حاولنا – عن طريق المقارنة – أن نتبيّن فيها الكوامن الخفية التي تتحكم في تشكلها وتنزع بها إلى التفرّد رغم أنّها قلّما خرجت عن النظرية الأدبية عند العرب باستثناء الموشح . فغايتنا النظر في كيفية تأليف النّصوص مما يدخل فيما يسميه م. ريفتار (M. Riffatere) بإنتاج النص (Production du texte)[3] في علاقته بالتجربة الحضارية الأندلسية، ومنها يستمد النّص بعض تميّزه .

فهذا الاختيار مكنّني من التركيز على النّص الواحد، أتبين فيه وجوه الظّاهرة وكيفية تداخل عناصرها وتفاعلها .

---

(2) – لعل أول ما يتبادر إلى الذهن من هذه النّصوص « التوابع والزوابع» لابن شهيد. فنحن لم نخصه بالدّراسة في عملنا لما لاح لنا في تعاملنا مع هذا النص من وجوه النظر إلى نصوص مشرقية متعددة استطعنا تحديد بعضها. وهو ما دعانا إلى إرجاء البحث في هذا النّص عسى أن نكتشف نصوصا أخرى سابقة له. وقد ظهر فعلا بعض هذه النصوص وهو «ظلامة أبي تمام» للخالدي الأصغر . انظر حوليات الجامعة التونسية العدد 37 / 1995 ص91.

(3) – هذه العبارة هي عنوان كتابه : La production du texte éd. Seuil . Paris 1979.

أمّا الباب الثالث فيمثل توسّعا في دراسة الظّاهرة يحاول تفسيرها مما يعضد ما وقع استنتاجه من النصوص الإبداعية ويدعمه.

وهذا التخطيط يبقى اختيارا له مبرّراته يستمدها من طبيعة الموضوع ومنهجية البحث فيه . ولكنه مع ذلك يمكن أن يناقش .

أمّا نتائج البحث فقد تعددت بتعدد أشكال الأدب الأندلسي . منها ما هو خاص بكل شكل ومنها المشترك بين جميعها ويتعلّق خاصّة بالمضامين ممّا يتّصل بالتّجربة الحضاريّة الأندلسية. ومنها ما يتعلق بمنهجية التعامل مع هذا الأدب ويتجاوزه أحيانا إلى الأدب العربي وقد أفضى إليها البحث في كلّ فصل. واستخلصتها في خاتمة عامّة استغرقت ثماني صفحات. لكني أكتفي في هذا المقام بإنجازها في النقاط التالية :

1- يخضع الأدب الأندلسي في أكثر نصوصه تماثلا - كالشعر الخليلي مثلا - إلى ما يسميه ابن الأثير " باتفاق الطريق واختلاف المقصد ". فالأديب يوظف من الرصيد المشترك عناصر يختارها ويؤلف بينها تأليفا يدخلها في رؤية شاملة يستمد النّص منها عميق وحدته وتميّزه مبنى ومعنى . فهو يتوخّى كالأدب المشرقي نمطا من الكتابة قوامه الإشارة لما هو تجريبي بتوظيف عبارة مثقّفة ثقافة قرون .

2- إنّ الأدب الذي يتوخّى هذا النمط من الكتابة لا يمكن أن يدرك فيه وجه تميزه بالبحث فيه عما يسمّى بـ " اللون المحلي " أو " التجربة المحلية في وجوهها المادية المكشوفة، وإنّما ينبغي البحث عنه في عناصر معنوية تحدد السلوك وتتّجه إلى مقاصد دون أخرى وتتصل بهواجس نفسية تحرك الأندلسي في علاقته بمحيطه، وما حول محيطه وفي علاقته بمهد الثقافة الأم ونظرته إليه وفي كل اختيار يحدد نموذجه في الثقافة والفنّ .

3- أمّا ما بدت فيه أندلسيته سافرة مكشوفة كالموشحات أو " طوق الحمامة " لابن حزم فالأمر فيه أعسر لأنّ حقيقة هذه الأندلسية وجوهرها إنّما يتشكل فنيا في مستويات بنية النّص العميقة عمق الثقافة التي ينهل منها .

4- إنّ البحث في الأدب الأندلسي يحتاج إلى المراجعة على ضوء ما توصلت إليه من نتائج في هذا البحث. لا على أنها نتائج ثابتة وإنّما لما تطرحه من قضايا تدعو إلى هذه المراجعة عسى أن يؤكد البحث بعض هذه النتائج ويعدّل في بعضها ويضيف إليها.

5- إنّ العلاقة بين التماثل والتميز في الأدب الأندلسي تجسم علاقة لقاء بين عناصر ثقافية وأخرى تجريبيّة. فقد التقت في هذا الأدب طبيعة الصحراء بطبيعة البحر وعناصر الجدب بعناصر الخصوبة . والتقت ثقافة البادية العربية بثقافة أعجمية ضاربة في القدم، والتقى الأذان بأجراس الكنيسة. فتألف من كل ذلك ضرب من الخيال الفنّي أخصبت فيه الصحراء أحيانا ونالت منها الخصوبة بلاغة القدم. ولا أدل على هذا اللقاء في التحام نسيجه من قول أبي بكر الأبيض يصف مغنيّا :

أعجـــميّ الصَّـــوْتِ لكـــن شَجَانِي ❁❁❁ عـــــــربـــــــيُّ اللــــــسَانِ

فصوت هذا المغنّي كان في لفظ عربي لكن الأداء كان عبر جهاز صوتي تعوّد بلغة الأمومة وهي أعجمية . فكان الغناء كما وصفه الوشّاح.